محاضرة رقم : 01 مدخل مفاهيمي

ينبغي على أي من يريد ممارسة البحث العلمي عموما والاجتماعي على وجه الخصوص أن يكون مستوعبا لمجموعة من المفاهيم وملما ببعض المصطلحات ومدركا لدلالات بعض المقولات المعرفية التي ينتظم حولها العلم باعتباره فعلا أو نشاطا يهدف إلى انتاج المعارف العلمية حول الواقع ببعديه الطبيعي والاجتماعي.

1- العلم:

كلمة "علم" لم تكن دوما وبشكل متواصل بالمعنى والدلالة التي هي عليه في ايامنا. في الفكر اليوناني نجد "أرسطو يؤكد انّ "العلم يتعلق بالضروري والأزلي" في حين يرى أفلاطون أن العلم هو "أعلى درجات المعرفة". في القرن الوسيط، اعتبرت الحقيقة العليا ذات طابع ديني. وحسب "لالاند" في اللسان الثيولوجي، لفظة "علم" تشير إلى معرف الله بالعالم. وظلّت كلمة العلم رهن التفكير الديني ثم الوجودي إلى غاية القرن السابع عشر، حيث لاحت في الأفق فكرة مناهج وخطوات التفكير، التي بموجبه انتقلت الهيمنة على فكرة العلم من الميتافيزيقا لصالح نظرية المعرفة.

في القرن الثامن عشر، شهدت الكلمة تطور على مستوى المعنى والدلالة، واصبحت تشير إلى "إستخدام البرهنة على ما نتحقق منه. بمعنى استنتاج مبادئ مؤكدة وغير قابلة للتغيير عن طريق نتائج مشروعة" فيما بعد وجراء الكثير من التحولات والثورات على مستوى التفكير في الأشياء بالخصوص مع صعود الفلسفة الوضعية، بدأت كلمة العلم تقترب من أخذ المعنى الذي هي عليه اليوم. حيث اكتسبت خصائص وميزات ما نسميه بالعقل العلمي أو الروح العلمية (L'esprit scientifique)، الطريقة والأسلوب الذي نعرف به (منهج المعرفة) عوض ما نعرفه (موضوع المعرفة). وعن هذه المرحلة يطالعنا "كارل جاسبيرس" بتعرف للعلم يقول فيه: "العلم هو المعرفة الممنهجة التي يعتبر مضمونها وبطريقة ملزمة، مؤكدا ومقبولا عالميا في نفس الوقت". سمح هذا التعريف العام للكثير من الفروع والميادين المعرفية، بالمطالبة بلقب العلم. وهو ما افرز العلوم القانونية والعلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية والانسانية وغيرها من العلوم التي أصبحت تنافس علوم الطبيعة وتتقاسمها مناهجها ومنطقها في البحث.

يتمثل العلم لنا باعتباره مجموعة من المعارف والأبحاث تتوفر على درجة كافية من الوحدة والعمومية، وتسمح لأولئك الذين يمارسونه بالوصول إلى خلاصات ونتائج متوافقة بعيدة عن أن تكون وليدة الاتفاقات التعسفية، أو الرغبات والمصالح الفردية المشتركة، وإنما وليدة علاقات موضوعية يتم اكتشافها تدريجيا والتحقق منها عن طريق مناهج التحقيق".

تشير لفظة العلم حسب أحد المهتمين بقضايا البحث العلمي، إلى أربعة معاني:

المعنى الأول: العلم باعتباره معرفة.

المعنى الثاني: العلم باعتباره موضوع البحث أو المعرفة. كأن نقول هذا موضوعا من مواضيع العلم، أو هذا الموضوع من اختصاص العلم.

المعنى الثالث: العلم باعتباره المنهج الذي من خلاله نحصل على المعرفة العلمية.

المعنى الرابع: العلم باعتباره الذات العارفة أو الروح العلمية.

كل هذه العناصر المترابطة في سياق مسعى التفكير العلمي، تأخذ معناها ودلالاتها من العلم باعتباره العنصر الناظم للعلاقة بينها. فحين نتحدث عن العلم باعتباره نشاطا أو فعلا، لا بدّ من حضور هذه العناصر الأربعة.

2- **البحث العلمي:**

البحث العلمي أولا وقبل كل شيء هو مسار أو مسعى عقلاني يسمح بملاحظة الظواهر، ومعالجة المشاكل، والحصول على إجابات دقيقة، من خلال تطبيق المنهج العلمي واستخدام أدوات وتقنيات التحقيق. يتميز هذا المسعى بكونه عملية منتظمة وتقوم على الصرامة، ويدفع نحو انتاج أو تحصيل معارف جديدة. بعبارة أخرى البحث العلمي هو مسار إجرائي منتظم في جمع المعطيات القابلة للملاحظة والقابلة للإختبار انطلاقا من التجربة الحسية.

البحث العلمي نشاط يسعى دوما نحو اكتشاف المجهول، وتعرية الأشياء العناصر الكامنة في الظواهر، والتعرف على القوانين والمبادئ التي تتيح فهم وتفسير الأشياء والوقائع، على غرار الوقائع الاجتماعية.

في هذا الصدد ينبغي دوما التذكير بمقولة "غاستون باشلار" أين يلّح على أن العلم لا يتحقق إلاّ بالكشف عن المخفي. (il n'ya de la science Que du caché).

جاء في تعريف "وايتني" أنّ "البحث العلمي هو استقصاء دقيق يهدف إلى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها". وفي نفس الاتجاه عرفه "بولنسكي" أنه "استقصاء منظم يهدف إلى إضافة معارف يمكن توصيلها والتحقق من صحتها عن طريق الاختبار العلمي". وفي نفس السياق يرى أحمد بدرأن البحث العلمي هو "وسيلة للدراسة يمكن بواسطتها الوصول إلى حلّ لمشكلة محددة، عن طريق التقصي الشامل والدقيق لجميع الشواهد والدلّة التي يمكن التحقق منها والتي تتصل بهذه المشكلة".

تتفق جميع التعاريف التي جاءت بخصوص مصطلح **البحث العلمي**، سواء التي اتينا على ذكرها أو التي لم نذكرها وهي كثيرة، على أن البحث العلمي بالدرجة الأولى يعتبر فعلا أو نشاطا "علميا" يتميز عن أي نشاط انساني آخر. لكونه نشاطا متمركزا على هدف يمكننا أن نعتبره استراتيجيا، وهو انتاج المعارف الجديدة أو تجديد المعارف المتوفرة حول الظواهر في إطار السعي نحو الوصف والفهم والتفسير والتنبؤ.

لكن أهم تعريف للبحث العلمي في نظرنا، هو ما جاء على لسان أحد كتاب مناهج البحث، ضمن حوار جرى بينه وبين أساتذه في منهجية البحث. يقول طلب مني الأستاذ ذات مرة تعريف "البحث"، فلما حاولت أن أتذكر ما قرأته في مراجع مناهج البحث العلمي. قال له: لا تعقد التعريف. إنّي لو سألتك عن شيء هو أمامك، هل سوف تفعل؟ قال: قلت لا لأنّه سهل الإدراك. ثم سأله: لو طلبت منك أن تبحث عن شيء معدوم هل ستفعل؟ قال: قلت لا جدوى من البحث عن المعدوم.

قال: إذا تبحث عن ماذا؟ قال: قلت عن شيء موجود ولكنه صعب الإدراك.

قال: هذا هو البحث في أبعد معانيه..

المنهج La Méthode

يقول "جورج دوميزيل: "في كل مرة نبدأ فيها بحثا ما، نجد أنفسنا مرغمين على ابتكار منهج معين. إني لا أومن بالمنهج إن هو لم يكن بالمعنى العام لقواعد مماثلة لتلك التي وضع ديكارت. إنه يرغمنا على أن لا نهمل أيا من الأمور". كما أن كل بحث خاص هو قبل كل شيء بحث في المناهج، حيث أن دور الباحث هو بالدرجة الأولى اختيار ووضع المناهج اللآزمة لتقييم وتعيين وعدّ المتغيرات والمؤشرات التي تكون موضوع دراسته.

ماذا يعني المنهج؟

من حيث الاشتقاق اللغوي، النهج والمنهج والمنهاج بمعنى واحد وكلها ألفاظ تشير إلى الطريق البين، الواضح، الذي يوصل إلى الغاية المرجوة بسهولة ويسر. ويعود أصل هذه الألفاظ في اللّغة إلى الجذر، نَهَجَ وأَنْهَجَ بمعنى وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بيّناً. جاء في التنزيل الحكيم قوله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً" (المائدة: 48)، والنهج هو الطريق المستقيم، والمنهاج هو الطريق المستمر. وطريق ناهجة أي واضحة.

من حيث الاصطلاح وعلى الرغم من أنّ لفظة "منهج" مجردة لا تخرج عن مدلولاتها اللّغوية، التي هي: الطريق، والسبيل،.. لكن بإضافته إلى البحث لتصبح "منهج البحث" تصير حاملة لدلالة علمية جديدة، تعود في نظر الكثير من الدارسين إلى القرن السابع عشر الميلادي، الذي شهد جهود كل من "فرانسيس بيكون" و"كلود بيرنار" وغيرهما، من الذين ربطوا بين منهج البحث والتجربة ربطا مصطلحيا. فأخذت لفظة "منهج" دلالة جديدة تعني: "الطرق المؤدية إلى كشف الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة. ويلخص محمد سعيد فرح هذا التعريف ضمن كتابه، لماذا؟ وكيف تكتب بحثا اجتماعيا، بقوله: "المنهج هو المنطق الذي يقوم عليه البحث، وكيف ندرس المشكلة".

تستخدم لفظة "المنهج" ضمن قاموس البحث العلمي لدينا كناطقين باللغة العربية كترجمة للكلمة الأجنبية (La Méthode)، بمعني الطريق أو الأسلوب والكيفية التي يصل بها الباحث أو العالم إلى نتائجه..

جاء ضمن إحدى المحاولات أنّ ديكارت عرّف المنهج بقوله: "أنا أعني بالمنهج قواعد مؤكدة بسيطة إذا رعاها الإنسان مراعاة دقيقة، استطاع أن يصل بذهنه إلى اليقين".

وجاء في مؤلف لـ عمر أكتوف، أنه من أجل ادراك الأهمية القصوى للمنهج في العلم، يكفينا أن نذكر بأن كل فرع أو حقل يريد أن يستقل بذاته، ينبغي أن يتوفر على موضوع خاص يتولى دراسته والاهتمام به، ومنهج من أجل البحث في هذا الموضوع. وفي هذا الإطار يعرف المنهج على أنه "المسار المنطقي الذي يتبعه العلم، اي مجموع الإجراءات الخاصة المطبقة كي يكون مسار البرهنة والتنظير واضح ولا يقبل الجدل." ويستعرض في ضوء هذا التعريف أنواع المناهج كما يلي:

المنهج الاستقرائي، المنهج الاستنباطي، المنهج التحليلي، المنهج العيادي، المنهج التجريبي، والمنهج الاحصائي.

المراجع:

-السيد علي شتا، المنهج العلمي وعلم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1995.

-جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، تر، محمد الجوهري وآخرون، ط1

-علي معمر عبد المؤمن، مناهج البحث العلمي في العلوم الاجتماعية، الأساسيات والتقنيات والأساليب، جامعة 7أكتوبر،ط1، بنغازي، 2008.

-محمد بابا عمي، مقاربة في فهم البحث العلمي، دار وحي القلم، ط1، دمشق، 2014.

-Fortin, M.F,et F.DEPELTEAU Le processus de recherche, La démarche d'une recherche en sciences humaines,: De la question de départ à la communication des résultats, de Boeck, 2eme Ed, Paris, 2010.

-Gaston Bachelard, La formation de l'esprit scientifique, Vrin, Paris, 1938

-Lalande, 1976, cité par Gilles FERREOL & autres , Dictionnaire de Sociologie, Ed, Mehdi, 4è édition, Algérie, 2013

-Omar AKTOUF, Méthodologie des Sciences sociales et approche qualitative des organisations Une introduction à la démarche classique et une critique,